

من قال إن عهد الميليشيات ولى ؟ ١٠ مسلحين خطفوني وضربوني

لأنهم ظنّوا أنّي سخرتُ من أحدهم !

عباس صالح / محرر في "النهار" ٢٥/١١/٢٠٠٢

أربعة ايام لم أدق فيها طعم النوم، ولا حتى شممت رائحته.
أربعة أيام وأنا أسمع قرقرة الدم يغلي في شراييني وعروقي، أحس بسخونته بل غلياته في رأسي وأطرافي. فالكرامة
عزيزة، لا يمكن ان يعوضها مجرد الشعور بالظلم ولا أي كلام معسول.

أربعة ايام وأنا أسأل ربي ونفسي ومن حولي: ماذا فعلت؟ صرت كمجنون يحدث نفسه جيئةً وذهاباً.
ماذا فعلت؟ لم أدرك حتى الآن اي اجابة عن سؤال يحدث دويماً مؤلماً جداً في أعماق روحي فيكبلني. ما الجريمة التي
اقترفتها حتى ينقض علي عشرة او اكثر من المسلحين المدججين بشتى أنواع الاسلحة وأحدثها يصوبونها نحو رأسي
وصدري بعدما "لقموها" وأصبحت جميعها في حالة الجهوزية لاطلاق الرصاص، ثم ينهالون علي ضرباً بأعقابها وبأيديهم
وأرجلهم الى ان سقطت على الارض فسحبوني من رأسي الى احدى سياراتهم المتوقفة وسط الطريق العامة ووراءها
رتل من السيارات والمارة تنتظر تنفيذ المهمة وتتفرج على مشهد حضاري من مشاهد العنف المجاني في لبنان، ٢٠٠٢
فيما تصرخ السائقات المنتظرات: "حرام، ارحموه، يكاد يموت". ولكنهن عبثاً كن يصرخن، ذلك ان الشباب المنتشرين
بالنصر المظفر بقوا في امكنتهم وتسمرت سياراتهم وسط الطريق تاركة ورائها ازدحاماً كبيراً ينتظرون الضابط الذي
طلبته من هاتفي عند وصولهم الي وأخبرته بأنني اعرض لعملية اختطاف امام متجر B.H.V ليزجوا به وعناصره
معي على ما صرحوا امام الموجودين. غير ان الضابط في قوى الامن الداخلي لم يحضر ولم تحضر الدورية التي وعدني
بها فانطلقوا بي بعدما وضعوني داخل سيارة فان في وضع القرفصاء وداسوا علي وصوبوا أسلحتهم نحو ظهري الى
الموقف السفلي للحديقة العامة المقابلة لفندق ماريوت. وهناك سحبوني بالطريقة نفسها مع الركل بالاقدام والضرب
بأعقاب البنادق الى غرفة مجاورة للموقف في الطابق السفلي من الحديقة (التي يفترض انها حديقة للنزهة وليست
زنزانة او مجمع أقيية تحقيق). لم يكن ذلك حلماً. كان حقيقة. حصلت عند الثانية من بعد ظهر الخميس الماضي.
كانت الغرفة خالية الامن كرسي يتيم جلس عليه أحمد مشيك عضو اللجنة الامنية في "حزب الله" والمعروف لدى
الاطراف الامنية الرسمية كما لدى بعض الصحافيين.

انفجرت اسارير وجهي عندما وجدت انني امام شخص أعرفه، ومن المفترض انه يعرفني. وأصبحت كمن وجد ضالته
وسط مجموعة شبان لا يفقهون سوى لغة الايدي والاقدام، رغم ان مشيك كان عابساً متجهماً يرمقني بنظرات حادة من
دون ان يتكلم.

لوهلة ظننت انه مستاء من تصرفات عناصره وغاضب من الطريقة اللااخلاقية التي عاملوني بها ولا يعرف ايمن يبدأ
بالاعتذار وتهدة خواطري، الامر الذي شجعني على ان أبادره بالسؤال اذا ما كان يعرفني وحين هز رأسه بالنفي عرفته
بنفسي وذكرته بأننا التقينا اكثر من مرة كان آخرها في دائرة رسمية لدى قريب لي وصديق له منذ مدة غير بعيدة.
وعندما أبدى عدم اكرائته، رأيت ان أبدأ بالكلام المفيد فسألته عن الجريمة التي اقترفتها حتى أستحق كل هذه الالهانة
وأجاب بالمختصر: "شتمتنا!"

وكان بيننا حوار بدأته بسرد ما حصل معي.

كان ذلك عند الثانية من بعد ظهر الخميس الماضي حين كنت أترجل من سيارتي بعدما ركنتها وسط طابور طويل من
السيارات المتوقفة قبالة متجر B.H.V لتتوقف بمحاذاتي سيارة BMW كحلية وقال لي سائقها الملنحي: احذر لأن رافعة

قوى الامن تعمل الان على رفع السيارات المتوقفة في هذه المنطقة، فأخذت كلامه على محمل النصيحة وشكرته على "الاشارة الودية" التي غالبا ما يبديها السائقون بعضهم لبعض في مثل هذه الحالات، وفعلا حاولت معاينة مكان آخر قبل ان أعود فأستقل سيارتي لأركنها فيه. الا ان الرجل - على ما يبدو - فسر تباطؤي في الصعود الى السيارة استغزازا له وعدم مبالاة بنصيحته التي سرعان ما تحولت الى أمر حيث عاجلني بلهجة حادة: "عجل شيلها أحسنك". فنظرت اليه والدهشة بادية على وجهي: ما بال هذا الرجل يخاطبني بهذا الانفعال؟ وما علاقته بشؤون السير وهو المدني الملتحي في سيارة مدنية؟ ولماذا لا يزال متوقفا وسط الطريق العامة متسببا بزحمة سير من ورائه رغم ابواق السيارات التي تنتظره؟ ولماذا اختارني بالذات ليحذرنى من ان الرفاعة تتربص بسيارتي المتوقفة ضمن رتل طويل من السيارات؟ وقبل ان أصل الى اجابة، او أنبس ببنت شفة، انفعلق قائلا: هل تتمسخرني؟ فسألته: من تكون حضرتك؟ ولماذا أتمسرك؟ هل أعوفك؟ ثم لماذا كل هذا الاهتمام اللفظ بسيارتي تحديدا؟ لقد نصحتني، شكرا على نصيحتك والله معك، افتح السير من ورائك على الاقل فانا غير مخالف انما انت المخالف الآن باقفالك السير.

ومن الواضح ان كلامي زاد في انفعاله فتناول هاتفه النقال وطلب رقما وهو يردد: الآن سأعرفك من اتا وستعرف ان عليك مخاطبتي باجلال.

وانبرى الى محدثه على الهاتف ليقول: "حاج، أرسل الي عشرة مسلحين الى هنا لدي صيدة! وأغاظني بكلامه هذا فاقتربت منه وقلت: "يا عزيزي من الواضح انك لا تزال في الاوهام، عليك ان تعرف ان عهد الميليشيات والمسلحين ولّى (مع الاسف كنت ما أزال أظن ذلك) و عليك ان تقلع عن اوهامك هذه وعن هذه اللغة في مخاطبة الناس وتعود الى الواقع وتقبله كما هو. قال: "ان كنت رجلا انتظرنى".

بقيت في مكاني وطلبت ضابطا صديقا لأخبره الامر على انه "آخر نكتة"، وما ان رد علي حتى فوجئت بسيارتي فان ورائج روفر تتبعهما سيارة الـ"ب ام" نفسها محملة بأكثر من عشرة مسلحين اخرجوا بنادقهم من نوافذ الفان والسيارات وساروا في اتجاهي، فأخبرت محدثي على الفور بأنني أتعرض لمحاولة اختطاف على أيدي عناصر مسلحة مجهولة في المكان الفلاني ورد علي بأنه خلال دقائق ستكون دورية الطوارئ قربي، وكانوا قد سمعوا جزءا من المكالمة فانقضوا علي وسحبوني وراحوا يصرخون: ننتظر الان الضابط والدورية لنأخذهم معك! رويت الحكاية لمشيك الذي بدا من خلال مقاطعته لي اكثر من عشر مرات غير مستعد حتى لسماعها. وعزّز اقتناعي هذا بقوله: لقد شتمتنا ومن يشتمنا يدفع الثمن غالبا.

وجدت نفسي معنياً بأن أثبت له أنني لست من الشتامين وليس هذا من شيمي وان كنت مقتنعا في قرارة نفسي بأن الشتيمة (على فرض حصولها) لا تستحق كل هذه المسرحية.

قلت: "من المؤكد ان الذي اخبرك بذلك هو نفسه الشخص الذي اعتدى علي. ومن الطبيعي ان يخرج خلفنا من الاطار الشخصي ويضعه في الاطار الحزبي ليظفر باستشارتكم ضدي. ثم اود ان ارد على هذا القول بالعقل والمنطق: كيف لي ان اشتم حزبا او جماعة قبل ان اعرف الانتماء السياسي للشخص الذي اختلف معي؟ في استطاعتك ان تسأله الآن بطريقة ذكية ان كان عرّفني عن نفسه او عن انتمائه قبل الآن. صدقتي أنا لم اعرف انني في عهدة "حزب الله" الا حين رأيتك.

-هل تريد اقتناعي بأنه يكذب؟ قال:

طبعاً هذا الامر لا يحتاج الى تحليل.

(قاطعني) أسكت، انه مسؤول في الحزب وحذاؤه اصدق منك ومن آلاف اللبنانيين.

ولكن انتماءه للحزب لا يسبغ عليه صفة العصمة، ليس منا من هو معصوم.

نحن لا نخطئ.

لماذا تصر على زج نفسك وحزبك معه؟ ألم تقرأ في القرآن وانت المتدين "إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"؟
بلا فلسفة علينا، ليس هو الفاسق بل أنت.

حسناً، طالما أنك اصدرت حكمك علي سلفا وقبل ان تسمعي، ولا يبدو انك تريد ذلك، فلماذا كل هذه الالهانة؟ نفذ ما تراه.

فعلأ سأنفذ ولا علاقة لي بعد الآن.

خرج من الغرفة، مع بعض الشباب الذين عادوا من دونه بعد قليل وانهالوا علي ضرباً وركلاً الى ان اسقطوني ارضاً وداسوني باقدامهم ثم تركوني.

وفي هذه الاثناء استغلتي هاتفي الذي كان لا يزال موجوداً معي وأجريت اتصالات، فانهالت الاتصالات على مشيك الذي عاد بعد نحو ساعة ليقول لي بلهجة فيها بعض الهدوء ان هيئة دعم المقاومة تعتزم اقامة افطار هذه الليلة في هذه الحديقة ومن المقرر ان يحضرها أمين عام "حزب الله"، ولهذا السبب كان شبابنا يعملون على ازالة كل السيارات من حول الحديقة كاجراء أمني احترازي، وفي اللحظة التي قرروا فيها العمل على نقل السيارات في وقت مبكر (عند الثانية ظهراً) كنت تركت سيارتك في محاذة الحديقة وحصل سوء تفاهم. وهذا كل شيء.

جميل جداً، ولكن لماذا لم يقل الشاب ذلك وكنت بالتأكيد امتثلت وازلتها بكل احترام ليس لشخصه بل لما يمثل.

هذا ما حصل الآن وربما يكون الشباب اخطأوا معك. لن نعود الى الماضي.

-على أي أساس.

-على أساس ان ما فات مات.

لكنني لن أكذب عليك فأنا ما زلت في قبضتك وتستطيع الانتقام مني الآن، فأنا سأخرج من هنا فوراً الى النيابة العامة او الى الفصيلة لاتقدم بدعوى خطف وحجز حرية وضرب واهانة قبل ان اتوجه الى المستشفى.

(-هازناً) وهل انت قادر على السيد في دعوى قضائية ضد "حزب الله"؟

من قال لك انني سأدعي على "حزب الله"؟ بل اعتزم تقديم شكوى جزائية ضد اشخاص معينين ومعروفين. اختطفوني لأكثر من ساعتين ونصف الساعة وضربوني واهانوني. أليس في البلد مؤسسات وقضاء ودولة؟

وهنا عاد مشيك الى الانفعال) انظر. نحن الدولة، ونحن المؤسسات، واذا كان من يشتمنا يداس بالاقدام، فكيف من يحاول الوقوف في وجهنا؟

-أرجو ان تفهمني، هؤلاء المسيئون انما يسيئون الى سمعة الحزب قبل غيره ايما اساءة، وممارساتهم الشنيعة تهز مصداقية الحزب الذي ينتمون اليه وتشوه صورته، ولا تخدم مسيرته النضالية. واعتقد ان عقلاء الحزب ينظرون الى هذه الممارسات على انها مسامير في نعش هذا الخط السياسي.

المهم انهم تركوني عند الرابعة والنصف وتوجهت مباشرة الى المخفر حيث قمت بواجبي. والى ان يقول القضاء كلمته في هذه الدعوى، يبقى الكثير من الاسئلة معلقاً ومفتوحاً في اكثر من اتجاه ليس أولها الى وزير الداخلية والبلديات الذي يتعين عليه الاجابة عن اسئلة كبيرة وثقيلة، اخالها تقض مضاجع الكثرة الساحقة من اللبنانيين، ولا أعدهه بعيداً عنهم: اين الامن يا معالي الوزير؟ ومن يحمي المواطنين الدراويش من تحامل وفيركات عناصر شريرة تستظل بأجهزة مسلحة غير رسمية تمارس نشاطات أمنية رديفة يجد فيها هؤلاء فرصاً لاشباع غرائزهم والتنفيس عن عقدهم فيتمخرون بشتى انواع الاسلحة ويرعبون الناس ويخطفون من لا يعجبهم على أعين الملاء ويقتادونهم الى اقبية وزنازين خاصة من دون ادنى وجه حق او مسوغ قانوني او حتى منطقي، ويعبثون بكرامات الناس على هواهم بعيداً عن أي رقابة او محاسبة رسمية؟

من يحمينا كمواطنين عَزَلَّ الا من كراماتهم، من هؤلاء الذئاب البشرية المتنقلين بيننا باسلحتهم؟ ومن اولئك الذين يعتبرون احذية المنتمين اليهم فوق الشبهات واصدق من البشر؟
قل لنا، بربك، يا صاحب المعالي من هو الحاكم الفعلي في جمهوريتنا المجيدة، هل صحيح ما قالوه لي؟ نريد ان نعرف الحقيقة منك حتى لو كانت مريرة وسوداء، عندها على الاقل نتخذ قراراً بالرحيل، فعبرة "أكلتُ يوم أكل الثور الابيض" ناصعة وواضحة لمن يريد ان يعتبر... ويتعظ.